

دور حواضر المغرب الأدنى في مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية

أ- ربيع رقي
جامعة أكلي محند أولحاج
- البويرة -

الملخص:

يتناول هذا البحث بعض مدن المغرب الأدنى ودورها الحضاري الذي شمل كل الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية، ومن أن أشهرها نذكر ثلاث حواضر وهي: القيروان أم المدن الإسلامية في بلاد المغرب عموما، وكانت محط المسلمين الفاتحين وقاعدة الجهاد ومركز إشعاع الحضارة الإسلامية، ولها الفضل الكبير في انتشار الإسلام في جهات عديدة من إفريقيا وأوروبا، والحاضرة الثانية مدينة رقادة التي كانت عاصمة دولة الأغالبة، وأما الحاضرة الثالثة فهي مدينة المهدية التي تعتبر أول عاصمة للدولة الفاطمية في بلاد المغرب قبل رحيلهم إلى القاهرة، وكانت بالتالي مركز المذهب الشيعي الإسماعيلي في بلاد المغرب.

الكلمات المفتاحية:

الحواضر؛ القيروان؛ رقادة؛ المهدية؛ دولة الأغالبة.

Résumé:

Cet article expose trois anciennes villes au proche Maghreb considèrent comme les meilleurs et les célèbres surtout aux cinq premiers siècles de l'hégire le kairawan était la première capitale au Maghreb musulman, Rekada capitale des Aghlabides, et le Mehdia la capitale des Fatimides chiites.

Keywords:

Urban; Kairouan; Raqqada; Mahdia; Aghlabid State.

مقدمة :

تكونت ولاية المغرب أو إفريقية كما هو مذكور في المصادر التاريخية بعد فتح المنطقة عبر عدة مراحل، وهذا ما تطرق إليه العديد من المؤرخين أمثال ابن عبد الحكيم (ت 275هـ/871م) والرقيق القيرواني (ق5هـ/11م) وابن عذاري المراكشي (كان حيا في عام 712هـ/1312م)، حيث ذروا أنه بعد فتح الديار المصرية، دعت الضرورة الاستراتيجية والعسكرية والسياسية والدينية المسلمين أن يواجهوا أنظارهم إلى بلاد المغرب من أجل تأمين حدود الدولة الإسلامية الناشئة، وحماية المسلمين من اعتداءات الروم البيزنطيين من الشمال الغربي ومن المغرب، ومواصلة سلسلة الفتوحات الناجحة ورفع راية الإسلام ونشر مبادئه السمحاء إضافة إلى تحرير سكان بلاد المغرب من الاحتلال البيزنطي والاضطهاد الديني والاقتصادي الذي مورس عليهم لقرون عديدة.

واستمر الفتح الإسلامي لبلاد المغرب سنوات طويلة منذ عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه- إلى عهد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي (86-65هـ/685-705م)، كما قاد عمليات الفتح الكثير من القادة بدءا بعمر بن العاص رضي الله عنه، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، ومعاوية بن حديج، فعقبة بن نافع لمرتين وأبو المهاجر دينار، وزهير بن قيس البلوي، وحسان بن النعمان وموسى بن نصير، وبمشاركة العديد من أبطال الإسلام ومشاهيرهم، والسكان المحليين الذين اعتنقوا الإسلام في فترة مبكرة.

وفي النهاية صارت بلاد المغرب جزءا من العالم الإسلامي، وقامت على أرضه عدّة دول مختلفة المذاهب الدينية، والتوجهات السياسية، وأصبح للمغاربة دور في التاريخ الإسلامي الطويل، ولم تنهم الظروف والمتغيرات التي طرأت على المنطقة في الإسهام في الحركة الثقافية والإرث الحضاري للمسلمين، كما ساهموا في تشييد

الحواضر التي صارت مركزا للعلم ومقصدا للعلماء والتجار وغيرهم، ومنها انتقلت معالم الحضارة الإسلامية المختلفة إلى إفريقيا الوسطى والغربية وأوروبا.

وقد انتشرت هذه الحواضر الإسلامية على كثرتها في كامل بلاد المغرب الإسلامي، ولعلّ من أهمها نذكر ثلاث حواضر، وهي: القيروان، رقادة، المهدية.

وتعود أهمية هذا الموضوع أي دور حواضر المغرب الأدنى في مختلف النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية في كون هذه الحواضر أدت دورا كبيرا في الحضارة الإسلامية عموما، وفي حضارة الغرب الإسلامي بصورة خاصة، وتعدت شهرتها حدود بلاد المغرب الأدنى، وكان لها شأن عظيم وتأثير واسع على غيرها من الحواضر والبلدان، كما أن هذه الحواضر كانت عواصم ومقر حكم وملك لدول مختلفة وفي فترات مختلفة، فالقيروان بتاريخها المجيد هي الحضارة الأولى التي بناها المسلمون الفاتحون في المغرب الأدنى وكل بلاد المغرب لتكون عاصمة لهذه الولاية الإسلامية الجديدة، ومقرا للحكم وقاعدة للجهاد والفتح ومركزا للعلم والعلماء ونشر الدين الإسلامي واللغة العربية بين السكان المحليين، أما رقادة حاضرة الأغالبة وعاصمة دولتهم، فقد شيدت لتعبر عن النهضة الواسعة للمغرب الأدنى أيام الأغالبة وتكون عاصمة سنّية مقابل تيهرت الإباضية في المغرب الأوسط، وفاس عاصمة الأدارسة في المغرب الأقصى، غير أن الفاطمي الشيعي الذي اجتاحت بلاد المغرب، وفي المقابل نجد المهدية حاضرة أخرى جديدة في بلاد المغرب الأدنى بناها الفاطميون بعد أن أسسوا دولتهم الشيعية لتكون لهم عزا وحصنا منيعا ضد الخصوم والأعداء من أتباع المذهب السني.

إضافة إلى توفر هذه الحواضر على مقومات الحواضر الكبرى من مساجد وقصور وبيوت ومواقف متنوعة وسكنها الكثير من الناس وارتبطت بشبكة طرق ومواصلات نشطة بحواضر أخرى في كل الاتجاهات شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، وأهمها القوافل ذهابا وإيابا.

وللتعمق في الموضوع وتبسيط الضوء على هذه الحواضر نطرح الإشكالية الآتية: ما الدور الذي أدته هذه الحواضر في المغرب الأدنى سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وعلميا؟ وقد قسمت هذا البحث إلى ثلاث عناصر أساسية هي أولا القيروان ودورها الحضاري، ثانيا: رقادة ودورها الحضاري، ثالثا: المهدية ودورها الحضاري، وهذا التقسيم جاء مرتبا زمنيا حسب تاريخ تأسيس كل مدينة، إضافة إلى مقدمة وخاتمة أجمل فيها النتائج المتوصل إليها خلال البحث، أما من الناحية المنهجية فاستعملت المنهج الوصفي والتحليلي والمقارن مستعينا بالتوثيق العلمي من خلال مصادر ومراجع مختلفة.

1. القيروان ودورها الحضاري سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وعلميا:

أ. تاريخ القيروان:

القيروان أول حاضرة ومدينة بناها المسلمون أثناء الفتح، بأمر من عقبة بن نافع الفهري عام 50 هـ/670م لتكون حصنا منيعا للمسلمين وقاعدة لانطلاق عمليات الفتح في المغرب الأوسط والأقصى، ومركزا لنشر الإسلام واللغة العربية، ونواة ولاية المغرب الجديدة والشيء المهم الذي ميّز هذه المدينة عن غيرها من المدن هو أن قاعدة القيروان تمثل فجر حركة الرباط والمرابطة في بلاد المغرب الإسلامي ككل، ومنطلق انتشار الإسلام في غرب وجنوب قارتي إفريقيا وأوروبا برا وبحرا.

وقبل بناء القيروان لم تكن للمسلمين قاعدة ثابتة في بلاد المغرب حيث كانوا ينطلقون من مصر وبرقة من أجل عمليات الفتح، ثم يعودون إليها إن تطلب الأمر ذلك، فلما ولي عقبة بن نافع على إفريقية بعد عزل معاوية بن حديج، وإذ ذاك كان مقيما ببرقة حيث كانت له فتوح وجهاد في تلك النواحي قرر أن يؤسس مدينة تكون مقرا للمسلمين ومنطلق عملياتهم، وكان قد أمده الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بعشرة آلاف فارس، فنزل عقبة في مكان أجمدة مليئة بالحيوانات والحيات، وارتضاه ليكون موضع البناء، وقام المسلمون بقطع الأشجار وإصلاح الأراضي، وبدأ ببناء المسجد الجامع، ثم مساكن الناس واستكمل البناء 55هـ/675م واتسعت خطة المسلمين وازداد عمران المدينة، ولم يغفل عقبة والمسلمون عن الجهاد⁽¹⁾، حيث كانت البعوث والسرايا تخرج من القيروان لاستكمال الفتح ونشر الإسلام الذي كان هدف عقبة ومن معه من المسلمين وتبعا لسياسة الدولة الأموية التي واصلت الفتوح شرقا وغربا، حيث بدأت في عهد الخلافة الراشدة وقد ذكر ابن الأثير ذلك في معرض حديثه حيث قال: "وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان، وأمنوا واطمأنوا على المقام، فثبت الإسلام فيها"⁽²⁾ ودخل الكثير من البربر في الإسلام، واستمرت القيروان في أداء دورها كعاصمة ورباط للمسلمين الذين لقوا كان البربر مقاومة شديدة من البربر اعتقاد منهم أنهم أمثال الغزاة السابقين كالرومان والوندال والبيزنطيين، وقد أدى ذلك إلى مقتل عقبة بن نافع في تهوده في إقليم طبنة إثر عودته من حملته الكبيرة التي وصل بها إلى البحر المحيط، وعند قفوله انهزم أمام البربر بقيادة كسيلة بن ملزم، ومن تحالف معه من الروم البيزنطيين، وكان ذلك في سنة 62هـ/682م فدخل كسيلة القيروان، واستولى عليها⁽³⁾، وكذلك فعلت الكاهنة بعد مقتل كسيلة في فترة حكم زهير بن قيس البلوي حيث شنت حربا ضروسا على المسلمين، واغتتمت فرصة مقتل زهير بن قيس في سنة 69هـ/689م، ودخلت القيروان، ونال من بها من

المسلمين الأذى الشديد إلى أن هزمها حسان بن النعمان الغساني الذي ولاه عبد الملك بن مروان على حكم إفريقية⁽⁴⁾.

وعمل حسان بن النعمان بعد ذلك على تجديد القيروان ومسجد عقبة ونشر الأمن عبر الطرقات والمسالك، وأدخل البربر في جنده، وأجزل لهم الأعطيات، ولما تولى موسى بن نصير ولاية إفريقية، استقرت أوضاع المسلمين بشكل كبير، ودخل البربر جماعات وقبائل في الإسلام ودانوا به بعد أن فهموا تعاليمه ومبادئه، ومما وجدوه من معاملة المسلمين التي تختلف عن سيادة الرومان والوندال والبنزطين العدائية والاحتلالية، فصار المغاربة جزء من العالم الإسلامي وساهموا في الفتح التاريخي للأندلس عام 92هـ/711م بقيادة طارق بن زياد⁽⁵⁾، وفي بدايات القرن الثاني للهجرة، شهدت بلاد المغرب ظهور الفتن المذهبية؛ فتنازعتها الأهواء، وصارت القيروان محطة أطماع لكونها العاصمة والقاعدة، ومن يسيطر عليها يستولي على كامل البلاد، واتسمت الصراعات والحروب بطابع سياسي وعنصري غذاه معاملة ولاية المغرب للسكان المحليين الاستعلائية والمجحفة، وفكر الخوارج الذي وجد أرضا خصبة وقلوب مملوءة غيضا، وأذان صاغية لمن يخلصها⁽⁶⁾، واختلط الخوارج الصفرية والإباضية في تسابقهم نحو القيروان خاصة بعد سقوط الدولة الأموية في دمشق على يد العباسيين⁽⁷⁾.

وفي عهد الخليفة الأموي عمر بن العزيز 100-102هـ/719-721م ازداد انتشار الإسلام وأسلم الكثير من البربر، واصطبغت بلاد المغرب بصبغة الإسلام تحت ولاية إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، وبمجيء البعثة العلمية أو البعثة العميرية من عشرة أشخاص التي هدفت إلى نشر تعاليم الإسلام السحاء وبث اللغة العربية بين الناس، وتعليم الناس أصول دينهم، وكان هؤلاء العلماء من كبار التابعين وفقهائهم، ونذكر منهم: عبد الرحمن بن نافع، سعيد بن مسعود وغيرهم، وشكلت القيروان ولمدة قرون حجر الأساس في المغرب الأدنى وكل بلاد المغرب وهمزة وصل بين مناطق عديدة شرقا وغربا، ومنها على سبيل المثال خرجت

الحملة الشهيرة لفتح جزيرة صقلية في البحر المتوسط والتي كانت قاعدة أساسية للروم حيث كانوا منها يغيرون على بلاد المغرب ونظرا لقربها من المغرب الأدنى فكانت تشكل تهديدا دائما وخطرا متواصلا على المسلمين. فما كان على المسلمين إلا فتحها وجعلها رباطا وثغرا بحريا متقدما لمنجزة الروم ودحرهم، وتم الأمر في عهد الأغلبة الذين حكموا المغرب الأدنى باسم العباسيين منذ أيام هارون الرشيد العباسي 170-193هـ⁽⁸⁾.

وكانت عملية الفتح لقاضي القيروان الشهير أسد بن الفرات الخراساني حيث أنه في عام 212هـ/827م انطلقت حملة تتكون من قرابة عشرة آلاف وسبعمائة مجاهد على متن مائة مركب من ميناء سوسة، ونزلوا صقلية وبدأوا عملية الفتح التي استمرت لعدة أعوام قُتل على إثرها العالم والمجاهد الكبير أسد بن الفرات قرب سرقوسة، ووضع المسلمون أيديهم على صقلية⁽⁹⁾ التي تعتبر منارة علمية أخرى في الغرب الإسلامي شبيهة بالقيروان في المغرب الأدنى وباقي الحواضر في بلاد المغرب والأندلس، ولا يفوتنا أن نذكر مقالة أسد بن الفرات لجنوده وهو يحضهم على الجهاد حيث ذكرهم بأنه لم ينل الولاية بالنسب والحسب بل بالعلم، فأمرهم بطلب العلم وتدوينه لنيل خير الدنيا والآخرة⁽¹⁰⁾.

واستمرت القيروان بأهميتها السياسية والعلمية فترة طويلة تؤدي دورها الريادي في بلاد المغرب السني، في حين اتخذ الأغلبة عاصمة جديدة لهم وهي رقادة، لكن المد الشيعي العبيدي داهم المغرب الأدنى فخضع للحكم الفاطمي منذ عام 296هـ/909م، واستولى الفاطميون على القيروان ثم تركوها لولاتهم الزيريين الصنهاجيين كمركز لهم في حفظ المغرب والسيطرة عليه، لكن لما عزم الأمير الزيري المعز بن باديس الصنهاجي على الاستقلال بالمغرب الأدنى عن الفاطميين في بدايات القرن 5هـ/11م، وصلت إليه جحافل القبائل الهلالية بإيعاز من الفاطميين، وعانت في البلاد إفسادا وتخريبا، ومزقت شمل الدولة وقضت على معالم الحضارة،

وخرّبت القيروان، ولم تعد العاصمة القوية ومركز الإشعاع العلمي والأدبي⁽¹¹⁾، كما كانت في سابق عهدها.

وفي ذلك الوضع المضطرب ظهر المرابطون على الساحة السياسية في بلاد المغرب فيما بعد، وهم ينتسبون إلى قبيلة صنهاجة الجنوب⁽¹²⁾، وتذكر المصادر التاريخية أنه قد مرّ أحد زعماء هاته القبيلة وهو يحيى بن إبراهيم الجدالي بالقيروان⁽¹³⁾، والتقى في عام 427هـ/1035م بالفقيه الكبير أبو عمران الفاسي وطلب منه إرسال أحد الفقهاء لنشر التعاليم الصحيحة بين الصنهاجيين في الصحراء⁽¹⁴⁾، فكانت المقابلة التاريخية شهادة ميلاد لدولة كبيرة بدأت بفكرة وانتهت بإمبراطورية مترامية الأطراف، وهذه حسنة من حسنات علماء القيروان العديدة.

وتاريخ القيروان السياسي حافل بالحوادث العظام والجسام، وهذا منذ تأسيسها، ولا يسع المقام لتعدادها وذكرها، بل اكتفي بهذه المحطات الكبيرة، تأسيسها في بدايات الفتح ودورها السياسي كعاصمة للجهاد والدعوة، وانطلاق فتح الأندلس منها وتهافت الخوارج عليها، وأثرها في دخول الحضارة الإسلامية إلى صقلية التي فتحها وحكمها الأغالبة، وتبلور الفكرة الدعوية التي نتج عنها ميلاد دولة المرابطين في صحراء شنقيط.

أ. حضارة القيروان:

لقد استوطن القيروان عناصر مختلفة بربر وغرب⁽¹⁵⁾ وخراسانيين وأندلسيين⁽¹⁶⁾ ودخلها الكثير من الصحابة والتابعين⁽¹⁷⁾ فهي بذلك مشهورة دخلتها نسائم الخير والبركة والسودد، وقد كان عقبة بن نافع قد بنى المسجد ودار الإمارة وسط المدينة وأبدى حرصا على العلم حيث ألحق مدرسة بالمسجد لتعليم الدين واللغة، كما قسمها إلى عدة مناطق، فجعل بعض المناطق للقبائل البربرية وبعضها الآخر للقبائل العربية من مضر وربيعة وقحطان⁽¹⁸⁾. ويعتبر مسجد القيروان من رموز الإسلام لكونه المنارة الأولى التي أشعت بنورها على المغرب الأدنى وكامل بلاد المغرب،

وفيه ألقى العلماء دروسهم وتلقى الطلبة أصول العلم منذ عهد الفاتحين الأوائل وعند مجيئ البعثة العمرية⁽¹⁹⁾، وبعد ذلك بزمان طويل، وقد بدأ المسجد بسيطا وصغيرا حتى أعاد حسان بن النعمان توسعته، وأمر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بنفس الشيء، وجعل له حديقة وصهريجا للماء، ثم وسعه يزيد بن حاتم المهلبى عام 155هـ/ 772م، ولما تولى الأغلبة حكم المغرب الأدنى قام زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب عام 201هـ/ 817م بالزيادة في مساحته، حتى أصبح واسعا وكبيرا تُعقد فيه الحلقات الدينية والعلمية واللغوية على يد أكابر العلماء ونخبهم⁽²⁰⁾.

وبالإضافة إلى المسجد الجامع ومدرسته كانت توجد بالقيروان معالم عمرانية عديدة كالحمامات والخزانات لتجميع الماء وتوزيعه عبر قنوات رئيسية ومجاري داخل المدينة، والنافورات، وميضات المساجد والمباني المختلفة للخاصة والعامة والحدائق، والمكتبة الموجودة في مسجد عقبة، والأسواق المختلفة جعلت من القيروان سوقا تجاريا يجذب التجار من كل مكان، وتغشاها القوافل المحملة بمختلف البضائع ولاسيما المنسوجات والسجاجيد، والأقمشة الصوفية والجلود من مصر، وبلاد الصحراء، والمغربيين الأوسط والأقصى والأندلس، فكانت القيروان مركزا لتصدير وتوريد مختلف البضائع والسلع⁽²¹⁾.

أما الحياة العلمية في القيروان فكانت مزدهرة ونشطة، والحركية الثقافية مضطردة النمو، وكان للقيروان قدم السبق على باقي الحواضر كتيهرت وفاس وقرطبة، فكان يؤمها العلماء من كلّ حذب وصوب، وكانت تدرس بها العلوم النقلية والعقلية، وأنشئت بالقيروان مدارس جامعة تسمى دور الحكمة درّس بها علماء من المغرب والمشرق، ووفد طلبة العلم من المغرب والأندلس وصقلية للنهل من مختلف العلوم ولاسيما العلوم الدينية على المذهب المالكي وكان قاضي القيروان هو كبير قضاة المغرب وإليه يعود أمر القضاء.

وتعتبر المكتبات من أهم المرافق التي كانت بالقيروان تتوزع بين المكتبات العامة ومكتبات المساجد والمدارس، وكانت تضم

أمهات الكتب والذخائر النفسية كمدونة الإمام سحنون الفقيه الكبير، ورسالة أبي زيد القيرواني، وتهذيب أبي سعيد البراذعي والتي تعتبر عمدة الشارحين والدارسين، ولا تعرف غيرها حتى القرن السابع الهجري، أما علماء القيروان من أهلها ومن درس بها أو من أقام بها فهم كثير لا يفي البحث ذكرهم، وفي كل الأصناف العلمية كعلوم الفلك والطب والنبات والهندسة والرياضيات والترجمة، مثل العالم أبو اليسر الشيباني المعروف بأبي اليسر الرياضي، والشاعر أبو عبد الله القزار القيرواني، والحسين بن رشيق القيرواني، والمؤرخ الرقيق القيرواني، والنسابة أبو العرب التميمي، والعلوي عبد الكريم النهشلي، والأديب أبو إسحاق القيرواني، وفي الطب أسرة بن الجزار، والطبيب زياد بن خلفون، وإسحاق بن عمران الذي برع في الطب، وأكثر علماء القيروان تخصصوا في علوم الدين كالقاضي أسد بن الفرات، والإمام عبد السلام بن سعيد بن حبيب الملقب سحنون صاحب المدونة، وابنه محمد، الإمام ابن غانم، وعيسى بن مسكين، وابن أبي زيد القيرواني⁽²²⁾، وأبي عمران الفاسي القاضي⁽²³⁾.

2. رقادة ودورها الحضاري:

أ. تاريخ رقادة وحضارتها:

تعتبر رقادة مدينة وحاضرة من حواضر المغرب الأدنى وإن كانت شهرتها لا تضاهي شهرة القيروان تاريخيا لا من حيث الزمن ولا من حيث الإشعاع والتفوق وحتى أنها لا تقارن بالمهدية الحاضرة الأخرى في المغرب الأدنى التي عمرت طويلا وبرزت أكثر منها، غير أن رقادة مع عمرها القصير جاءت في وقت كان الأغلبية قد بلغوا شأوا في التقدم والازدهار، فشيدت لتكون من شواهدهم.

وعند استقلال الأغلبية بالمغرب الأدنى تحت التبعية الاسمية للعباسيين في بغداد كأمرو واقع رضيت به الخلافة من أجل الوقوف

حاجزا وسدا في وجه بنو رستم الإباضيين في تيهرت، والأدارة في فاس، لم تكن رقادة قد بنيت بعد، فقد كانت القيروان هي العاصمة السياسية الأولى وأمّ الحواضر في المغرب الأدنى، وما لبث إبراهيم بن الأغلب أن اتخذ قاعدة جديدة لدولته جنوبي القيروان على بعد 3 أميال سمّاها العباسية سنة 184هـ/800م⁽²⁵⁾.

وبعد فترة من الزمن قام الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد الأغلب 261-289هـ ببناء رقادة عام 263هـ التي كانت بمثابة العاصمة الخاصة للأغالبة، وكانت تقع على مسافة أربعة أميال جنوبي القيروان⁽²⁶⁾. وقد اتسعت المدينة كثيرا بأحيائها ومرافقها حتى بلغ قطرها 10 كم⁽²⁷⁾، وقد سكنها عبيد الله الفاطمي أول حكام الدولة العبيدية الفاطمية في المغرب بادئ الأمر قبل أن ينتقل إلى المهدية وفقدت بالتالي تدريجيا مكانتها حتى زالت آثارها أيام المعز الدين الله الفاطمي 341-363هـ⁽²⁸⁾، وقبل ذلك بوقت وجيز خضعت لأبي الله الشيعي عام 296هـ أثناء حركته التوسعية لإسقاط دويلات المغرب الثلاث المستقلة حيث بدأ بمهاجمة الأغلبة لقرب دولتهم من مضارب قبيلة كتامة مركز دعوته ومهد حركته، ومنها فرّ زيادة الله الثالث نحو مصر⁽²⁹⁾، وبعد دخول عبيد الله المهدي إلى رقادة قام بتوزيع دورها ومنازلها على رجال كتامة الذي كان آنذاك عصب الجيش الفاطمي⁽³⁰⁾، وبعدها فرّ أهلها إلى القصر القديم (العباسية)، والقيروان وسوسة، ونهبت رقادة مدة سنة أيام، وتعرضت قصور الأغلبة للنهب والسلب⁽³¹⁾.

وصارت رقادة خرابا كنيبة بعدما كانت زاوية عامرة بأهلها وساكنيها، وفي عام 297هـ، ظهرت بوادر التعصب الديني للفاطميين حيث بدوا في إكراه الناس على التشيع، فما استجاب لهم إلا القليل تحت الإكراه، وقتل خلق كثير رفضوا الانصياع لهم⁽³²⁾.

وعند الحديث عن الجانب الحضاري لمدينة رقادة، فقد كانت تشهد ازدهارا اقتصاديا كان عماده الزراعة والتجارة، فالزراعة

كانت لها مقوماتها من اليد العاملة، ووجود التربة الخصبة الصالحة للزراعة، مع توفر المياه واتباع التقنيات المتعددة للري، وأما عن التجارة فإنه كما نعلم كان للأغلبية أسطول بحري قوي به، يوفر نقل البضائع بمختلف أنواعها وأحجامها من وإلى رقادة والمدن الأخرى مع مرونة في التعامل التجاري، وأما في الجانب العمراني فقد احتوت رقادة على مرافق عديدة كالجامع الكبير والأسواق والحمامات والقصور الفخمة كقصر بغداد، وقصر العروس، وأما في الجانب العلمي فقرب المسافة بين القيروان ورقادة جعل العلماء والفقهاء الموجودين في القيروان على اتصال دائم برقادة، وأشهر ما كان برقادة بيت الحكمة الذي هو عبارة عن مدارس أو معاهد للتعليم⁽³³⁾.

3. المهدي ودورها الحضاري:

كانت المهدي حاضرة الفاطميين في المغرب الأدنى وعموم المغرب، وحصنهم المنيع، وكانت أيضا العاصمة السياسية ومقر الحكم والسلطة، ومستقر الحاكم الفاطمي وأهله وخواصه، وقد تمّ بنائها بأمر من الحاكم الفاطمي عبيد الله المهدي الذي أراد أن يحمي ملكه ونفسه في أرض لا يعرفها وبين قبائل ألقت التمرد والعصيان والثورات خاف انقلابها عليه، ولأسيما أن الدولة في بداياتها لم تستقر بعد، وهناك عوامل ألحت على المهدي في بنائه للمهديّة، حيث ما إن جلس على كرسي الحكم حتى قتل داعيته في إفريقيا أبو عبد الله الشيعي وأخيه أبو العباس عندما توجس منهما ورأى رغبة الشيعي في الاستئثار بأمور الدولة. الأمر الذي أثار الكتامين أنصار الشيعي فحاولوا الثورة على المهدي، وحدثت ثورة أخرى بين أهل القيروان والكتامين، وثورة أهل طرابلس⁽³⁴⁾ وعامل آخر قضى بإنشاء المهديّة هو استراتيجي بحت، حيث أن رقادة التي نزلها المهدي تقع في سهل فسيح لا يفي بالأغراض الدفاعية الضرورية، فهي معرضة دوما للأخطار، فاختار مكانا على طرف البحر شرق المغرب الأدنى⁽³⁵⁾، وهو على شكل جزيرة متصلة بالبر، وبني دار الصناعة في جوف الجبل تتسع لمئة مركب وزودها بمخازن الطعام وخزانات الماء (الماجل)، والقصور والدور⁽³⁶⁾ وسماها بالمهديّة تيمنا باسمه⁽³⁷⁾، ومن المهدي بدأت أطماع الفاطميين في السيطرة

على مصر ثم المشرق، وخرجت الحملتان الفاطميتان الثانية والثالثة أعوام 307هـ و322هـ، لغزو مصر وانتزاعها من يد العباسيين⁽³⁸⁾، وتمكن الفاطميون أخيراً عام 358هـ/969م من دخول الفسطاط في مصر بقيادة جوهر الصقلي، وبأوامر من الحاكم الفاطمي المعز لدين الله الذي كان يراقب عن كثب أوضاع مصر من عاصمته المهدية⁽³⁹⁾.

وتعرضت المهدية في تاريخها كباقي العواصم والحواضر للأطماع الخارجية والثورات ولعل أخطرها حصارها لمدة ثمانية أشهر من طرف الثائر أبو يزيد الخارجي عام 334هـ عندما أعلن ثورته على الفاطميين بعدما استولى على القيروان ورقادة وتونس، واشتد بالناس الجوع حتى أكلوا الدواب، وتدافعوا نحو البحر للهروب والنجاة إلى البلاد المجاورة⁽⁴⁰⁾، وفي القرن الموالي اجتاحت قبائل بنو سليم وبنو هلال المغرب الأدنى بإيعاز من الفاطميين الذي كانوا قد انتقلوا إلى القاهرة بمصر، وهذا انتقاماً من خلفائهم على المغرب الأدنى وهم الزييريون الذين كانوا ولاية عليه وذلك لما خلعوا طاعة الفاطميين الشيعة، وبايعوا العباسيين السنة عام 444هـ (1051م)، فعاثت الأعراب فساداً في الأرض وخربوا المدن والحواضر، ومنها المهدية⁽⁴¹⁾، وفرّ الأمير الزييري المعز بن باديس، واغتتم أبناء عمه الحماديين واستقلوا ببجاية، ولم يبق للزييرين إلا نطاقاً محدوداً حول المهدية التي تعرضت لهجمات سفن جنوة وبيزا عام 480هـ، ثم النورمان الذين احتلوها عام 543هـ، حتى خلصها الموحدون عام 554هـ من أيديهم عندما قاموا بتوحيد كامل بلاد المغرب الإسلامي⁽⁴²⁾.

أمّا عن الجانب العمراني لمدينة المهدية فقد احتوت على مرافق متنوعة، وكانت هناك مدينة أخرى بالقرب منها جعلت للعمامة من أهل المغرب الأدنى وقبائل كتامة تسمى زويلة بينهما صور،

وهذا للحبوة والحذر كما أسلفنا ذكره حيث كان المهدي وخلفائه شديدي التوجس من الأهالي، كما شيد المهدي قصرًا في المهديّة لابنه القائم والجامع الكبير، كما تم بناء في عهد المعز للدين الله الفاطمي (العبيدي) مصنعًا آخر للسفن⁽⁴³⁾. وقد كانت المهديّة في عهد المعز بن باديس الزيري عامرة بالمرافق والأسواق والحمامات والمكتبات وغيرها كالقصور والدور، زاهرة بالعلم والعلماء، حيث تم جعل المذهب المالكي السني هو المذهب الرسمي للدولة، وحث أهل بلاد المغرب على التمسك به، ونظرًا لوقوع المهديّة على طرف البحر فقد ازدهرت بها التجارة، وهذا بفضل الأسطول القوي الذي كان يضم مئات السفن من مختلف الأنواع.

الخاتمة:

من خلال هذا البحث المتواضع، يظهر لنا جليًا مدى اهتمام المسلمين بالجانب الحضاري والعمراني الذي لا يقل أهمية عن الجانب الديني المرتبط بالجهاد والمرابطة منذ بدايات حركة الفتوحات الإسلامية، وقد أبان المسلمين غيرهم أن الإسلام دين علم وعمل، حيث شيدوا مدنًا وحواضر عديدة كانت لهم عزا وللإسلام دارًا، في شرق العالم الإسلامي وغربه، وكان الجانب السياسي دوما حاضرًا عند تشييد أي مدينة والغاية السياسية والضرورة الإستراتيجية تفرض نفسها من أجل الحماية وسهولة الدفاع عنها والتحصن من المخاطر.

والمغرب الأدنى كان عامرًا بالمدن المهمة والمشهورة في التاريخ الإسلامي، وفي كل جهاته ورغم اختلاف الدول التي حكمته غير أن الاهتمام كان متواصلًا ببناء المدن لتكون مركزًا لهاته الدول وعواصم فيها القصور والدواوين والحكومات وتكنات الجيش بحيث

تكون هذه الحواضر مدن ذات طابع رسمي بعيدا عن المدن الأهلة بالسكان.

وإن اقتصر بحثنا على مدن ثلاث هي: القيروان، ورقادة والمهدية، لا يعن ذلك أن المغرب الأدنى لم يعرف سواها، بل تاريخ وشهرة هذه الحواضر أعطى لها الأسبقية والأفضلية، والشواهد كثيرة حيث نجد مدن أخرى كتونس، وسوسة، والعباسية، والمنصورة، وغيرها كان لها شأن كبير في تاريخ المغرب الأدنى.

الهوامش:

1. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 2010، ج3، ص ص62-63. أنظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2005، ص37
2. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مطبعة بولاق، 1290هـ، ج3، ص63.
3. المصدر نفسه، ج3، ص208؛ محمد بن محمد بن عمر العدوان، تاريخ العدوان، تحقيق أبو القاسم سعد الله، ط2، دار الغرب الإسلامي بيروت، 2005 ص ص299، 300.
4. ابن الأثير، المصدر السابق، ج3، ص ص415، 418.
5. المقري، نفح الطيب، تحقيق محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1302هـ، ج1، ص ص214، 238.
6. أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب الأندلس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 2005، ص70.
7. أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، ص ص29، 25، أنظر: محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، المطبعة الحسينية، القاهرة، 1917، ج9، ص ص285-286.
8. أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص80.
9. حسان حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، 2012 ص ص114-116.
10. أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص114.
11. أحمد أرشيد الخالدي، المدن والآثار الإسلامية في العالم، ط1، دار المعتز للنشر، عمان، 2010، ص ص52، 55.
12. عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ بن خلدون، منشورات الأعلمي، بيروت، 1971، ج6، ص181.
13. مونتغمري وات، في تاريخ اسبانيا الإسلامية، ترجمة، محمد رضا المصري، ط2، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1998، ص108.

14. عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2011، ص 608.
15. العدوانى، المصدر السابق، ص 78 وما بعدها.
16. حلاق، المرجع السابق، ص 115.
17. العدوانى، المصدر السابق، ص ص 193، 194.
18. الخالدي، المرجع السابق، ص 56.
19. المرجع نفسه، ص 60.
20. المرجع نفسه، ص 58.
21. المرجع نفسه، ص 59.
- نسبة إلى الإمام مالك بن أنس (93-169هـ)، صاحب المذهب المالكي.
22. الخالدي، المرجع السابق، ص-ص، 60، 63.
23. ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 183.
24. أبو الحسن المالقي النباهي، تاريخ قضاة الأندلس (المرقب العليا) تقديم، صلاح الدين الهوارى، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2006، ص 44، 48.
25. أحمد مختار العبادي، في تاريخ العباسي والفاطمي، ص 92.
26. حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط5، دار الجنوب للنشر، تونس 2015، ص ص 62، 67.
27. البكري، المسالك والممالك (المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب)، مكتبة المتنى، بغداد، 1857، ص-ص 27، 28.
28. عبد الوهاب، المرجع السابق، ص-ص 62، 67.
29. ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص ص 575، 577.
30. العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ص 229، 230.
31. ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 595.
32. المصدر نفسه، ج 6، ص 598.
33. عبد الوهاب، المرجع السابق، ص ص 62، 67.
34. ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص ص 599، 615.

35. العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص 231.
36. ابن الأثير، المصدر السابق، ج6، ص 641.
37. ابن عذاري البيان المغرب في أخبار المغرب، طبعة دوزي، ليدن، 1948، ج1، ص227؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص- ص 20،21.
38. العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص 140.
39. المرجع نفسه، ص- ص 147، 148.
40. المرجع نفسه، ص 233.
41. المرجع نفسه، ص 229.
42. المرجع نفسه، ص 326.
43. عبد الوهاب، المرجع السابق، ط1، 2001، ص76.
44. العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص237.